السيرة النبويَّة والدعوة إلى الله (١)

بقلم د. محمد بن لطفي الصباغ

إن جانب الدعوة إلى الله في السيرة النبوية الشريفة يشملُ السيرةَ كلها؛ فرسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – شاهد ومبشر ونذير وداعٍ إلى اللهِ، بل هو إمام الدعاة وسيدهم صلوات الله وسلامه عليه؛ يقول الله تعالى:

{يا أيها النبي إنا أرسلْناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذْنِه وسراجا منيرا} [الأحـزاب: ٤٥-٤٦].

عن عطاءِ بن يسار قال: "لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص؛ فقلت: أخبِرني عن صفَة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في التوراة؛ فقال عبدالله: أجلْ، إنه لموصوف في التوراة بصفَته في القُرآن: {يا أيهـا النبـي إنـا أرسلْناك شاهدا ومبشرا ونذيرا}، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المُتوكلَ، لست بفَظ ولا غلـيظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفَع السيئَةَ بالسيئَة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبِضه الله حتى يقيم به الملةَ العوجاءَ، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غُلْفًا"؛ رواه البخاري برقم (٤٨٣٨)، وأحمد (١٧٤/٢).

وهذا وصف ينطبِق عليه، صلى الله عليه وسلم.

هذا؛ وقد روى ابن أبي حاتم، ونقَله عنه ابن كثيرٍ - في تفسير هذه الآية - نصا جميلًا عن وهبِ بن منبه معناه صحيح، نورده هنا لصحة معناه، ودقة وصفه لسيدنا رسول الله، الداعية الرسول.

قال وهب: "إن الله أوحى إلى نبي من أنبياءِ بني إسرائيلَ:... وأبعثُ نبيا أميا، ليس أعمى من عميان، أبعثُـه ليس بفَظ ولا غَليظ، ولا صخابٍ في الأسواق، لو يمر إلى جنبِ السراج لم يطْفئْه من سكينته، ولو يمشي علـى القَصبِ اليابِس لم يسمع من تحت قَدميه، أبعثُه مبشرا ونذيرا لا يقُولُ الخنا، أفْتح به أعينا عميا، وآذَانا صـما، وقُلوبا غُلْفًا، أسدده لكُل أمر جميلٍ، وأهب له كُل خلُقٍ كريمٍ، وأجعلُ السكينةَ لباسه، والبر شعاره، والتقْـوى ضميره، والحكمةَ منطقَه، والصدق والوفاءَ طبيعته، والعفو والمعروف خلُقَه، والحق شريعته، والعـدلَ سـيرته، والهُدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجَهالة، وأرفَع به بعد الخَمالة، وأعرف به بعد النكْرة، وأكثر به بعد القلة، وأغْنِي به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفُرقَة، وأؤلف بـه بـين أمـمٍ متفَرقة وقلوبٍ مختلفَة، وأهواءٍ متشتتة، وأستنقذُ به فئاما من الناس عظيمةً من الهلكَة، وأجعلُ أمته خيـر أمـة أخرجت للناس، يأمرونَ بالمعروف وينهونَ عن المُنكَر، موحدين مؤمنِين مخلصين، مصدقين بما جاءَت به رسـلي،

ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناءَ والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسِهم ومضاجِعهم ومنقَلَبِهم ومثْواهم يصلون لي قياما وقعودا، ويقاتلون في سبيل الله صفوفًا وزحوفًا، ويخرجونَ من ديارهم ابتغاء مرضـاتي ألوفًـا، يطهرونَ الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قُربانهم دماؤهم، وأناجِيلُهم في صدورهم، رهبـانٌ بالليل، لُيوثٌ بالنهار، وأجعلُ في أهل بيته وذُريته السابقين والصديقين والشهداءَ والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق، وبه يعدلون، أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعلُ دائرةَ السوءِ على من خالفَهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئًا مما في أيديهم، أجعلُهم ورثَةً لنبيهم، والدعاةَ إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهونَ عن المُنكـر، ويقيمونَ الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ، ويوفُونَ بعهدهم".[١]

إنه نص جميل، وردت فيه جملةٌ من صفات الرسول – صلى الله عليه وسلم – الدعوية، وورد فيـه ذكْـر لفضله العظيم على أمته التي هداها الله به، فكان فيها - بفضل الاقتداء به.

صفات الدعاة الصادقين:

إن موضوع الدعوة في السيرة النبوية يشملُ السيرةَ كُلها؛ ولذا فلن أستطيع في هذه الكلمة عرض مواقـف الرسول الدعوية، أسردها سردا كاملًا، لأن ذلك يقتضيني عرض السيرة النبوية عرضا كاملًـا، مـن أولهـا إلى آخرها، ولكنني سأعرض إمكانيةَ استفادة الداعية من السيرة في دعوته ومخاطبته الناس، وإلى إمكانيـة اسـتفادة المَدعوين من السيرة.

والموضوع – حتى بهذه الحدود – واسع جدا؛ ولذا فسآتي ببعض الأفكار والخواطر عن هذا الموضوع.

وأود أن أذكُر علاقتي بالسيرة أولاً:

إن موضوع السيرة ليس غريبا علي؛ فمنذ أيام الطفولة المُبكرة كانت لي صلةٌ وثيقةٌ بأحداث الـسيرة عـن طريق السماع، وما زلت أذكُر تلك القَصص الرائعةَ المحببة عن النبي – صلى الله عليه وسـلم – الـتي كُنـت أسمعها من والدتي - رحمها الله - فقد كانت تقُصها علينا بأسلوبٍ محببٍ جذابٍ، وبلُغة مفْهومة من قبلنا، ولقد كانت تلك القَصص أحب شيءٍ إلينا، ننتظرها بفارغ الصبر، رحمها الله رحمة واسعة، وجزاها عني وعن إخـوتي وأخواتي الخَير الجزيل.

ورحم اللهُ سيدي الوالد، الذي كان يجمعنا بعدما جاوزنا مرحلة الطفولة، ودخلْنا مرحلة الفُتوة والـشباب، كان يجمعنا على قراءة السيرة، وغالبا ما كان يعهد إلي بقراءة الجزءِ المُخصص لتلك الجَلْـسة تـشجيعا منـه وتعليما، وكان لذلك التصرف الأثر الكبير في نفْسي وفي تكويني العلمي، رحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عـني الخَير. (رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربيانِي صغيرا).

ثم **بعد أنْ بدأت بطلبِ العلْمِ، وصرت أخطُب الجُمع وألقي الدروس** في **المَسجِد، كانت السيرةُ النبويةُ مرجعا مهما** لي.

ولما رزقَنِي الله **أولادا، من بنِين وبنات كنت أعقد** لهم **درسا يوميا، وكان عماد هذا الدرس السيرةَ النبويةَ.**

وتعلق الأولاد بحضور **هذه الجَلْسة تعلقًا شديدا، حتى كانت عقُوبةُ من يذنِب من الأولاد حرمانـه حـضور الدرس.**

لقد كانت هذه العقُوبةُ هي العقُوبةَ الكبرى عندهم؛ فكان الولد المحروم يبكي ويوسط أمه ويتعهـد بالتوبـة وبألا يعود إلى **مقَارفة هذا الذنبِ مقابِلَ أن يسمح له** بالحُضور.

وكانت هذه الجَلْسةُ نافعةً للأولاد أعظم النفع ولله الحمد والمنةُ، حتى أكملْنا دراسةَ السيرة كلها.

وبقيت آنس بالسيرة **فأفزع إليها، أقْرؤها بينِي وبين نفْسي، وأستشهد بأحداثها** في **كتاباتي وأحاديثي.**

وصلى الله **على** محمد، **وآله وصحبه وسلم.**

---

[١] انظر: تفسير ابن كثير. سورة الأحزاب الآيتان {يا أيها النبي إنا أرسلناك}... الآية.